

حرف الراء

١٤٠ - الرشيد: بن الشريف بن علي الشريف دفين مراكش بن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف دفين سجلماسة الشريف الحسن بن النبيوعى السجلماسى سلطان المغرب الأقصى.

ولادته: ولد بسجلماسة عام أربعين وألف.

صفته ونشأته وحاله: حسن الخلقة، واسع الجبين، قصير القامة، غليظ الجسم، أسمر اللون، أشهل العينين واسعهما، كأنهما مرآة لقلبه الكريم، تشفان عن ذكاء مفرط، ويعلم منهما على البديهة فرحه وحزنه، شديد بياض الأسنان، كث اللحية أسودها خالطه شيب، له تأثير على القلوب يحبه كل من رآه، نشيط خفيف الحركة، لباسه لباس الأتراك، ملامح الذكاء والنباهة والشجاعة والإقدام لائحة بين عينيه.

نشأ في حجر والده في صون وعفاف، لم يأل والده قدس الله روحه جهدا في تهذيبه وتدريبه وتعليمه وتأديبه بالآداب النبوية، حتى شب متين الديانة كامل الدراية والرواية، كريم الأخلاق، حسن العشرة، أبى النفس، عالى المهمة، طموحا إلى المعالى، لا يرضى بالدون ولا سفاسف الأمور، طاهر الذيل، ثابت الجأش، طويل النجاد، عارفا بسير الأمم وأحوالها وأخلاقها وسياسة الملوك ونواميسها، مشاركاً في فنون من العلوم، حازماً ضابطاً شجاعاً مقداماً لا يبالى في الحروب بنفسه، شديد الشكيمة على من عصاه أو هتك حرمة من حرم الله، يتولى القصاص وإقامة الحدود الشرعية بنفسه من غير أن تأخذه رافة ولا رحمة في دين الله، جمع الله فيه من الخصال الحميدة والسجايا الكريمة ما تفرق في غيره.

١٤٠ - من مصادر ترجمته: نشر المثنى في موسوعة أعلام المغرب ١٥٦٧/٤.



السلطان الأعظم مولای الرشید بن الشریف العلوی

قال فى نزهة الحادى: كان محبا فى جانب العلماء، مؤثرا لأغراضهم، مولعا بمجالستهم، محسنا إليهم حيث ما كانوا، جوادا سخيا، رحل الناس إليه من المشرق فما دونه وقصده بعض طلبة الجزائر فامتدحه بيتين وهما:

فاض بحر الفرات فى كل قطر من ندى راحتك عذبا فراتا
غرق الناس فيه والتمس الفق ر خلاصا فلم يجده فماتا
فوصله بالفين ونصف دنائير، وشأوه فى السخاء لا يلحق، والحكايات عنه
بذلك شهيرة، وفى أيامه كثر العلم، وظهرت للعلماء أبهة، وأعز العلم وأهله،
وكانت أيامه أيام سكون ودعة ورخاء عظيم هـ.

ووصفه صاحب نشر المثانى: بأنه محبى رسوم الدين، وقاطع دابر
المفسدين، مفضل أهل البيت النبوى، ومظهر الفخر الطاهر العلوى، ليث الإقدام
وبدر الظلام، وشمس الأنام، وظل الله للخاص والعام، ورحمة للمسكين
والضعيف، كان من أهل المكارم التى لا تحصى، والفضائل التى لا تعد ولا
تستقصى، من ساداتنا شرفاء سجلماسة البلدة الغراء، وحق لها أن تنال بآل البيت
علوا وفخرا، حاضرة ملوك المغرب المدعوة بتافلالت القادمين عليها من الحجاز كما
تقدم مينا.

قال سيدنا الجدد رحمه الله فى كتابه الدر السنى ما نصه: وهم من صرحاء
الأشراف نسا، وفضلائهم حسبا، وكبرائهم أقدارا، وعظمائهم اشتهارا، طلعوا فى
سماء المجادة بدورا، وبرزوا فى محافل السيادة صدورا، وتساموا فى المشارق
والمغرب ظهورا، وحملوا من المهابة والجلالة لواء منشورا، لهم فى علو الهمة
ونفوذ العزيمة منصب لا يضاهاى ومرقب لا يباهى، آبية نفوسهم، طيبة غروسهم،
عزيز جارههم، محمى زمارهم، كريمة سجايهم، عظيمة مزايهم، تلقاهم فى

المكاره ليوثا، وفى المكارم غيوثا، أحرزوا من الفطر العلية قديمها، ومن السير العلوية فخيمها، وبرعوا أقرانهم من الأشراف، تجمع شعبتهم المباركة ثلاثة أصناف، فكان فيهم الأكابر من الأعلام، والكثير من الصلحاء الكرام، ومنهم ملوك وقتنا وسلاطينه العظام، خلد الله فى الخيرات مآثرهم، وأيد بالتوفيق أوامرهم.

ثم قال: نهض للخلافة السلطان الأعظم والملك الأفخم، ركن الفخار المشيد، أبو المكارم مولانا الرشيد، طيب الله ثراه، وعمه بعفوه ورحمائه، فظهر أولا ببلاد آنكاد ثم استولى على مدينة تازا وما والاها ثم على فاس فدخل دار الملك بمدينة البيضاء ليلة يوم الاثنين الثالث من ذى الحجة متم سنة ست وسبعين وألف واستوطنها، ثم ملك المغرب بأسره قطراً بعد قطر إلى وادى نون من السوس الأقصى، وإلى قرب الأغواط من ناحية الجريد فكان مجددا للملك بالمغرب^(١) انتهى.

ثم قال فى النشر: ولما مر صاحب الترجمة بالموضع المسمى بالشط من الظهراء، أمر بحفر آبار شتى وهى تدعى إلى الآن بآبار السلطان، فهى مضافة إليه، فيسقى منها ركب الحجيج فى مروره وإيابه، فهى من آثاره، تقبل الله منه، وكان على يده هذا الفتح العظيم، لضعفة المسلمين بل لجميعهم، فى هذه المدة اليسيرة، لما جبل عليه من حسن السيرة، إذ كان من السراة الغطارف، ومن الأعجوبات فى الإقدام بين المراهف، أحيا الله به رسوم الدين بعد دروسها، وأنعم المساكين بعد شدة بؤسها، خاض أمواج الأهوال حتى أحمدها، وقام فى نار الفتى حتى أحمدها، فيالها من نهضة لله ما أحمدها، تدارك الله به المغرب بما فيه من قوى وضعيف، وأغنى به الوضعيع والشريف، ولا زال بسيرته المباركة كريما

(١) نشر المثنى فى الموسوعة ١٥٦٧/٤.

فاضلا، زكى الأخلاق كاملا، يتنازل على مقامه الرفيع، فيجبر خاطر المتخفّض والوضيع، ومن شيمه الجليلة، ومنحه الجزيلة، مجالسة العلماء وإكرامهم، ومباستطهم بين الملا وإعظامهم، ومع تحمل النهوض بأمر الخلافة حتى ألقت إليه زمامها فى مدة قليلة، أبدى مآثر فى مصالح المسلمين جليلة، كبناء المدرسة التى بحومة الشراطين من فاس، وأتى على بنائها من الأساس، فبالغ فى إتقانها صنعا، وبذل المجهود فى إحسانها وضعا، وتجديد ما اندرس من القنطرة البديعة المعتبرة التى لا يعرف بالمغرب مثلها، وقلما اتفق فى معمور الأرض شكلها، وهو أربعة أقواس منها، وهى على نهر سبو على نحو فرسخ من فاس^(١).

قال: ولما أكمل قنطرة سبو بالبناء، نقشت فيها أبيات من نظم العلامة القاضى أبى عبد الله المجاصى ومنها:

صاغ الخليفة ذا المجاز ملك الحقيقة لا المجاز

فوقع الاعتراض عليه بأن ملك الحقيقة هو الله تعالى لا غيره، وأجيب بأجوبة منها أن الحقيقة تنقسم إلى عقلية وشرعية ولغوية وعرفية، والملك بمعنى العقلية لا يكون إلا لله وفى غيره مستحيل، فيحمل على إحدى الحقائق الباقية، والأقرب منه حمله على الحقيقة العرفية بمعنى أنه لا يقال فى العرف ملك حقيقة إلا له، أما باعتبار الحاضرين فى زمنه فلا إشكال، وأما باعتبار من مضى فهى على طريق المبالغة، وذلك سائغ فى باب المدح، والله الموفق^(٢) هـ.

والاعتراض المذكور هو للشيخ السيوسى فى المحاضرات، قال فيه: ومن البشيع الواقع فى زماننا فى الأوصاف أنه لما بنى السلطان المولى الرشيد بن الشريف جسر نهر سبو وصنع بعضهم أبياتا كتبت فيه برسم الإعلام أولها فذكر البيت

(١) نشر الثانى فى الموسوعة ١٥٦٧/٤ - ١٥٦٨ .

(٢) نشر الثانى فى الموسوعة ١٥٦٨/٤ .

المذكور وقال أثره: فحمله اقتناص هذه السجعة والتغالى فى المدح والاهتبال بالاسترضاء على أن جعل ممدوحه ملكا حقيقة لا مجازا، وإنما ذلك هو الله وحده وكل ملك دونه مجاز، الممدوح وغيره هـ.

وهو فى باب التحذير حسن، كما أن الجواب المتقدم فى باب الاعتذار، وخصوصا عمن ثبت علمه وتحقيقه من الأبرار لا بأس به.

قال فى النشر: ومن مزايا المترجم العظيمة، وعطاياه الفخيمة، وفطره السليمة، أنه كان حيث ما دخل بلدا تعاهد مساجدها ومدارسها وسأل عن مجالس إلقاء العلماء بها، وعمن يحضرها، وربما حضر مجلسا لبعض الكبراء، فرأينا فى بعض التقايد أنه حضر مجلس الشيخ اليوسى، وكان يدخل للمساجد بنفسه، ودخل مرة فاسا على حين غفلة من أهله فدخل القرويين وتلك كانت عادته فى دخولها، ثم دخل للمدرسة المصباحية، فتعرض له الإمام سيدى الحسن اليوسى مع فقيه آخر فأعطى لكل منهما مائة مثقال، وما اجتمع مع علماء وقته إلا وحض فى مجلس اجتماعه معهم على نشر العلم وبشه وإتقانه وتحقيقه وتعظيم طلبته، وقد صادف ذلك كل مرام، وأحيا الله به نعم المغرب بعد الانعدام. لطلوع شموسه، على ين تغير من وجه الدهر وعبوسه. فجاء المغرب على فترة من هلكه، فأقبل على التعلم والتعليم، وعمرت أسواق العلم وقد عفت منذ قديم^(١).

قال: ولما قبض الله تعالى والده إليه، خرج من تافلا لت فى ثالث عشر رمضان عام تسعة وستين وألف.

قال: وفى ثامن عشرين من شوال وصل إلى تدغة، ثم إلى دمنات، ثم الزاوية البكرية ثم إلى آزو ثم إلى دار ابن مشعل هكذا وجدت مقيدا عن الحافظ الفاسى.

(١) نشر المثنى فى الموسوعة ١٥٦٨/٤.

وسياتى أن وصوله إلى دار ابن مشعل كان عام خمسة وسبعين ، وموت أخيه مولاي محمد ، واستيلاءه على فاس الجديد والقديم كان فى عام ستة وسبعين ، وفى عام سبعة وسبعين أخذ الزاوية البكرية ، وفى عام ثمانين أخذ فى حفر أساس قنطرة سبو ، وفى العام الذى بعده استولى على تارودانت وسائر البلاد السوسية ، وفى العام الذى بعده وهو اثنان وثمانون توفى فحصل أمره من موت والده عام تسعة وستين إلى موته عام اثنين وثمانين .

وحدثنى بعض الفقهاء الثقات عن والده ، وأعرفه من الثقات وقد أدرك هذا الزمن ، أن مولاي رشيد لما نزل بالزاوية أن لا يقيم بها وأن يسرع بالخروج ، وأخبره أن مما هو شائع عندهم أن مولاي الرشيد هو الذى يخلى زاويتهم تلك ، وأنهم استفادوا ذلك من بعض الأخباريين عن كشف أو غيره ، مخافة أن يهجم عليه أحد من رؤسائهم بسبب ذلك .

وقد كانت لأهل الدلاء زيادة محبة فى آل البيت عن غيرهم من أهل وقتهم ، فخرج مولاي رشيد من الزاوية فصادف قافلة خارجة منها فطلبوا منه أن يحميهم إلى محلهم الذى يريدونه لأن الوقت وقت نهب ففعل ، فتعرض لهم خلال الطريق بعض أهل البوادي يريدون نهبهم فأخبرهم مولاي الرشيد بأنهم فى حمايته ليحترمهم بحرمة إذ تلك كانت عادة أسلافه فى حماية القوافل وغيرها ، فلم يعبئوا به فتجرد لقتالهم مع مملوكين له اثنين فقط من رقيق السودان ، وبید كل واحد منهما مكحلة فأخذ المكحلة من يد أحدهما وحمل بفرسه على القوم فأصاب واحدا منهم برصاصة ورد المكحلة للمملوك ، وأخذ المكحلة الأخرى من يد الآخر فحمل كذلك فأصاب رجلا آخر وما رد المكحلة حتى وجد المملوك الآخر عمر المكحلة الأخرى فأصاب منهم آخر أيضا ، وبقي كلما حمل عليهم أصاب واحدا منهم مع حفظ الله إياهم منهم .

فما أمكن القوم إلا الفرار منه مع كثرتهم، فكان مقدمة لما قدر فى سابق العلم من تولى إمارة المغرب فما رجع عنهم حتى أعطوه ثلاثة عشر فرسا التى أصاب فوارسها برمييه، فحمل على كل فرس رجلا ممن اختار لمتابعته، ورجع فى الحين واستقبل فاسا العليا ونزل أمامها فرآه رئيسها الدريدى من بعض بروج سورها، فسأل من هو؟ فأخبر به، فأرسل له فى الحين دراهم نحو خمسة مئاقيل مع وسق من الشعير، وقال لرسوله إليه قل له: هذه عشائوه يعنى الدراهم، وهذا علف دوابه يعنى الشعير، فليرتحل ولا يقيم عندنا قسطا.

فرحل مسرعا فوفد على رئيس يدعى الشيخ اللواتى، وكان يتفقر ويعظم نسبة الشرف فبالغ فى إكرامه، فبينما هو مقيم عنده إذ رأى رجلا بهيئة من خيل وأتباع ومماليك وهو يصطاد كهيئة الملوك، فسأل من هو؟ فقيل له: ابن مشعل من يهود تازا، فتنحى سريعا وجعل السكين فى فمه واستقبل الشيخ اللواتى، فلما رآه بادر إليه قائلا لبيك يا سيدى لبيك لا أعز عنك رقبة ولا مالا لأن ذلك عندهم علامة على تأكيد الاستعطاف فى أخذ الثأر إن ظلم أو شبه ذلك.

فاقترح عليه أن يهيبئ له خمسمائة أو نحوها من إخوانه الأبطال ليفتك باليهودى غيرة منه جزاه الله خيرا على دين الله، فقال له: لا تخلف عنك واحد منهم أينما توجهت، فتواعد معهم أن يَمروا خفية متفرقين ويلحقوا به دار اليهودى ابن مشعل، وهى على نحو نصف مرحلة من تازا شرقا فى البيداء أو أزيد من ذلك، ثم تقدمهم إليها واستضاف اليهودى فأضافه وتبعه الأبطال فأحاطوا بالدار بعد أن أظلم الليل بحيث لم يشعر بهم أحد، وبحيث يتصل بهم إن احتاجهم واحتال حتى اتصل باليهودى فى خلوته فبطش به وقتله وأدخل الرجال باحتيال صادف به مرامه.

فاستولى على دار اليهودى وأخذ منها أموالا كثيرة وذخائر نفيسة فنال ما قدر الله له من موعده، وسطعت فى فلك السعادة منازل سعوده، انتهى.

زاد غيره أن ابن مشعل هذا كانت له صولة على المسلمين واستهزاء بالدين وأهله، قلت: بذلك يكون ناقضا لعهد الذمة، ليس لماله ولا لدمه حرمة.

وتذكر هنا قضية كعب بن الأشرف اليهودى وتوجيه النبى ﷺ من فتك به ليلا على نحو الصفة التى فعلها المترجم هنا، وهى فى صحيح البخارى وغيره، قال فى النشر: ولاحق للمغرب السعادة والبشائر، وانتعش به بعد الإشراف على الموت كل حيوان من ناطق وصاهل وطائر، وكل خير من ربنا الملك الوهاب، ولكل أجل كتاب.

وذكر لى بعضهم مما هو شائع عند بنى يزناسن بالزراى أن اليهودى المذكور كان بدار له متحصنا بجالهم وهم محزبون عليه، فما زال المولى الرشيد يلاطفهم فى أمره حتى فهم اليهودى أنهم قد أسلموه، فنزل إليه بهدية فقبض عليه وقتله ودخل داره واستخرج ما فيها من الأموال، فالله أعلم أى ذلك كان وكيف كان هـ.

هذا وقد وقع فى أصول التاريخ للكننت دو كاسترى المؤرخ الفرنسى نقلا عن أسير الدولتين الرشيدية والإسماعيلية أن خروج المترجم من تافلا لت كان فى رفقة قواد ثلاثة، أحدهم أسود اللون والآخرا ن عربيا ن وأنهم قصدوا وادى درعة مع من كان معهم من الجنود بقصد شن الغارات.

وأن أخاه المولى محمد لما علم بذلك أرسل بعض الفرسان فى طلبهم، ولما مثلوا بين يديه أوقع القبض على صاحب الترجمة وأودعه السجن، وأقام الحد الشرعى على بقية أتباعه بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم بعد أيام قلائل فر المترجم من السجن وجمع عليه جنودا صار بها ذا قوة وبأس شديد، ثم ظفر به أخوه المذكور ثانية رغم جنوده المجندة وأودعه السجن وشد فى حراسته، وبقي بالسجن مدة طويلة إلى أن استعان ببعض مواليه فى فتح نقب بجدار السجن انفلت منه، وأنه بعد انفلاته قتل ذلك المعين، لأنه صار لا يأمن خيائنه بعد أن خان

الملك، ثم قصد الزاوية الدلائية وبقي مختفيا بها إلى أن أوجس في نفسه خيفة من أهلها، ففر إلى قبيلة كبدانة على الضفة اليسرى من وادى ملوية، واتصل بقائدها على بن سليمان، وبقي في خدمته إلى أن سنحت له الفرصة بأخذ قلعة ابن مشعل ونهبها، ثم بعد ذلك جمع الناس وألقى عليهم خطبة قال فيها:

أيها الناس، إننى أحكم بينكم بالعدل، وأقابلكم بالحلم الذى عرف به البيت الفلالى إذ أنا ابن مولاي الشريف وأخ مولاي محمد ملك تافلات الآن، ومن العسير أن تجدوا أميراً أعرق منى فى النسب الشريف، وقد رأيتم من أفعالى ما يدلكم على كرامة أصلى، وأننى سأكون ساعيا على الدوام فى مرضاتكم وسترون إن يسر الله لى فى الملك فوق ما صرحت لكم به مما تكونون به سعداء مطمئنين، ولا يصدنكم عن مبايعتى ما لكم من الاحترام نحو أميركم فإنه ليس أهلا للولاية، لكونه لا يحب دولته ولا يهتم بأمورها.

وما ترقى الملك والأمراء إلا بالنظر فى مصالح بلادهم والقيام بشئونها، ومن الواجب عليهم الزهد فى مصالحهم الشخصية وشغل أوقاتهم بالنظر فى مصالح أوطانهم، فإن عكفوا على اللهو والتمتع باللذات تعين خلعهم، وإنى أطلب منكم أن تبايعونى على ذلك، فإن وفيت فذاك، وإلا فلکم إنزالى عن العرش، ولا شك أن أهل كبدانة وغيرهم من القبائل يوافقونكم على فعلكم ويستحسنونه.

ثم بعد ذلك تمت له البيعة، فلما سمع بها على بن سليمان اغتاض غيظا شديدا فحشد جنودا مجندة، وزحف بها لمحاربة الرشيد، ولكن كان أمره خسرًا، إذ صارت تلك الجنود المجندة تدخل فى طاعة الرشيد ولم يقف بها الأمر عند ذلك الحد، بل أُلقت القبض على أميرها وسلمته للرشيد فسلبه مما كان بيده من الأموال وأمر بقتله، وأنفق بعض ذلك المال فى الجند قائلًا هذا جزاء تعبكُم وتفانيكم فى خدمتنا.

ولما سمع بذلك مولاي محمد نهض للايقاع به قبل استفحال أمره، فأخرج الرشيد لقواده القيود والأغلال التي كانت عليه لما كان في سجن أخيه، وقال لهم: هذه الأغلال التي كانت على بسجن أخى فهل لكم أن تنتقموا لى منه، فأجابوه بالموت دون نصرته، ولو أتى السيف على آخرهم.

فوصلهم بأموال طائلة، ولما التقى الجمعان كان النصر للرشيد فهزم ثانية، واقتفى أثره الرشيد لتافلات وحاصره إلى أن مات.

ثم بعد ذلك بمدة آتاه يعنى الرشيد وفد من مكناس لتقديم طاعتهم له، فولى عليهم أخاه مولانا إسماعيل هـ الغرض فليحرر.

والأمير المذكور فى كلامه ليس هو مولاي محمد بدليل أول الكلام، وإنما المراد به على بن سليمان المذكور، ثم لا يصح أن يكون هذا الأسير المنقول عنه شاهدا ما حكاه، لأنه إنما أسر فى الدولة الرشيدية، وهو هنا يحكى ما كان قبل زمن أسره، فبالضرورة أن حديثه هذا إنما رواه عن غيره، ولعل ذلك الغير غير ثقة إن لم نقل الراوى لم يتثبت أو تعتمد الزيادة والنقصان، خصوصا وكلام مؤرخى الإسلام لا يساعده فى كثير من فصوله، فلهذا أشرت إلى أنه فى عهده بقولى فليحرر.

وانظر قوله وحاصره إلى أن مات، فإنه ظاهر فى أن الحصار والموت كانا بتافلات، والواقع يفنده.

قال فى نشر المثنى^(١) فى حوادث عام ١٠٧٥: حرك مولاي محمد لأخيه مولاي رشيد فهزم مولاي محمد وقتل يوم الجمعة الثامن من المحرم، ودفن بدار ابن مشعل على نصف مرحلة من تازا، أو أكثر شرقا، وأنه لما قتل ابن مشعل

(١) موسوعة أعلام المغرب ٤/ ١٥٢٨.

وحصل من عنده على مال كثير جدا قصده أخوه مولاي محمد لانتزاعه منه لئلا يستقل بالملك فلم يقدر له على شيء هـ.

قال فى الدر المنتخب المستحسن بعد أن حكى القول بمدفن مولاي محمد المذكور بدار ابن مشعل ونسبه لغير واحد، والذي رأته فى بعض تأليف بعض الشرفاء أنه دفن بسجلماصة قرب والده، وقد يجمع بينهما بأنه دفن حيث ذكر ثم نقل لسجلماصة هـ.

قال فى النشر: وفى يوم السبت حادى عشر رمضان انتهض رؤساء فاس لأمر أهلها بشراء الخيل والمكاحل واجتمع أهل فاس، والحياينة، وصفرو، والبهاليل، وغيرهم خارج باب الفتوح للميز وتأكيد عدم الدخول فى طاعة مولاي رشيد فأغضى عنهم مولاي رشيد وحاصر أهل تافيلالت تسعة أشهر ثم نزل بتازا فخرج أهل فاس من الحياينة إلى الغارة عليه فى خامس عشر شوال، فرجعوا فارين فتبعهم إلى قنطرة سبو ورجع، فبعثوا إليه بصلح فلم يكمل بينهم وبينه حتى أكمل الله مراده وبلغه أمر المغرب فأنقذه به من أهل العناد، وأحيا الله به البلاد والعباد^(١).

وكانت أيامه مباركة على كثير من المسلمين اتفق له فيها ما لم يتفق لغيره فى كثير من المسلمين.

قال ومن حوادث عام ستة وسبعين وألف: أن مولاي رشيد نزل على فاس فقاتل ثلاثة أيام، وجرح برصاصة فى أذنه، فرجع سالماً، ثم عاد مرة أخرى فى ثالث ربيع الأول فأوقع فيهم القتل والجرح ما يقرب من سبعين رقبة، ورجع لأنه لم يكن أتى مستعداً لهم، ثم سار إلى الريف فحاصر أعراس^(٢) وأخذه فى رمضان بعد منازلات، وفى ضحوة الثلاثاء ثامن وعشرين من ذى القعدة نزل أيضا

(١) الموسوعة ١٥٢٩/٤.

(٢) تحرف فى المطبوع إلى: «أعراض» وصوابه من نشر المثنائى الذى ينقل عنه المصنف..

على فاس فحاصرها إلى الخميس ، وبقي جيشه مقاتلا إلى يوم الاثنين ثالث ذى الحجة ، فأصبح بفاس الجديد وقد دخل من أعلى السور ليلا من جهة الملاح ، وفر رئيسهم الدريدي ، ثم نزل عشيته فاسا ففر ابن الصغير رئيس اللمطين ليلا إلى بستيون باب الجيسة ، وفر أحمد بن صالح رئيس الأندلسيين صبيحة غده وطلع أهل فاس فبايعوا مولانا الرشيد ونصروه ، وقبض ابن صالح قبل الزوال بحوز البلد ، وقتل جماعة من أصحابه وسجن بباب دار ابن شكره^(١) بفاس الجديد ، وولى القضاء حمدون المزوار يوم الخميس سادس الحجة^(٢) هـ .

وفى شرح الزياني على نظمه التاريخي المعنون بألفية السلوك : أن تولية حمدون القضاء كان بإشارة من الأستاذ أبي زيد عبد الرحمن بن القاضي ، وذلك أن المترجم لما جلس على أريكة الملك بالعاصمة الفاسية ، وجه للأستاذ المذكور يستقدمه عليه فأجاب بعدم قدرته على القدوم لكبر سنه وملازمته لبيته ، فلما جاء جوابه للمترجم قال للرسول : إني آتية يخرج لمحل قريب من بيته آتية فيه ، فخرج لغرسة درب الدرج حائطها موال لمصمودة ، ولما قدم السلطان فتحوا له فى حائط الغرسة نقبا دخل منه إليها واجتمعا معا ، فقال له : جئتك لأستشيرك فيمن أوليه بفاس من حاكم وقاض ومحتسب وناظر ، فقال له : أما الحاكم فلا أتقلده ، والقاضى حمدون المزوار ، والمحتسب عبد العزيز المركنى الفلالى ، والناظر العدل مسعود الشامى .

ولما خرج من عنده أمر أن يبنى بالمحل الذى دخل منه باب وبقي طريقا ، فهو درب الدرج لم يكن قبله ، ولما بلغ دار الإمارة نفذ الإمارة لسيدي محمد بن أحمد الفاسى ، والقضاء للمزوار ، والحسبة والنظارة لمن ذكر .

(١) فى المطبوع : «دار ابن شقراء» والمثبت من المثنى .

(٢) نشر المثنى فى الموسوعة ١٥٣٧/٤ .

فامتنع الشامي من النظارة فسجن سبعة أشهر، ولما ضاق به الأمر أجاب على شرط أن لا يتعرض له قاض ولا وال لأن الأحباس كلها حازها اللصوص والأشراف أيام الفترة، حتى كادت أن تستأصل كلها واشتغل بالبحث عنها واستظهارها، ومن اتهم بربع أو أرض أو جنان أو دكان يحوز ما عنده من الرباع، فما ظهر رسمه رده له وما وجد مغصوبا أولا رسم عنده علم أنه مغصوب فيحوزه للحبس، حتى رد الأوقاف كلها وزاد عليها ما وجد مغصوبا من الوقف أو غيره.

ولما ولي المزوار القضاء كان كثيرا ما يرد أحكامه المفتى عبد الوهاب الفاسي في نوازل وأحكام تقع منه مخالفة للمشهور، وعلم بذلك ابن القاضي كتب لمولاي رشيد يقول له إن من أشرت عليك بولايته له أصهار، وأصحاب تجار، ومخالط لأعيان فجار، فأقلنى من عهديته أقالك الله من عذاب النار، فكتب له أن ينظر للقضاء من هو أهل غريب الدار، لا قرابة له ولا أنصار، حامل الذكر فذكر له المجاصى الغياثي فولاه القضاء بفاس هـ.

قال فى النشر: وفى يوم الخميس الذى بعده يعنى بعد الخميس الذى ولى فيه حمدون المذكور خطة القضاء قتل ابن صالح وابن الصغير ثم ولديه، ثم خرج مولاي الرشيد بحركته للغرب فانهزم منه الرئيس الخضر غيلان ومن معه، وتبعهم فدخل القصر، وخرج إلى أصيلا، ورجع مولاي رشيد من القصر ثم عاد لحصاره^(١) هـ.

وقال الأسير مويت كان خروج المولى الرشيد لقتال عبد القادر غيلان فى ثمانية آلاف فارس واثنين وثلاثين ألف رام، فتلقاه غيلان بستة وعشرين ألف جندى كلها مدربة على القتال لما كان بينهم وبين النصارى من المحاربة بالشواطى، ولما التقى الجمع كان النصر الأخير لمولاي الرشيد وانهزمت جيوش غيلان أمام

(١) نشر المثنائى فى الموسوعة ١٥٣٧/٤.

الجنود الرشيدية إلى أبواب آصيلا، ومن هنالك فرَّ غيلان إلى الجزائر ودخل في طاعة الرشيد القصر وتطاوين وسلا وكانت إذ ذاك بلدة مستقلة هـ.

قال في النشر: ومن المحكى أن ابن صالح والدریدی وأشباعه لما أحسوا من الناس الضجر وكثر ذكر مولای الرشيد على الألسنة والتشوف إليه لما اشتد بهم الحال من الحصار والفتن، وكان أغلب ذلك في شرفاء فاس أظهروا مشاحنة على سبيل المكيدة، فاختصم الدریدی مع ابن صالح وأظهروا المقاطعة بينهما، فجاء أشباعهما لكل من يعرفونه من الشرفاء والفقهاء الذين يحبون مولای الرشيد، وطلبوا منهم أن يصلحوا بين الرئيسين، مدلين بأن هذا وظيف الشرفاء والفقهاء^(١).

ومن جملة من كان فيهم العلامة حمدون المزوار، وأبو عبد الله محمد بوعنان الشريف، وآخر من أقاربه فامتنعوا أولا كراهية الدخول في أمر الولاة، فاعتل أهل فاس بأن لا ملجأ في مثل هذا إلا لهم، وحثموا عليهم ومن تغيب من الأشراف وغيرهم ممن عزموا عليه اتبعوه حتى حضر، ومن تمرض كلفوه المشقة، والبعض من الشرفاء، اختفى من ذلك كل الاختفاء، لكونه أخبر بالمكيدة من بعض أصدقائه، حتى جمعوا جميع من قدروا عليه ممن يظنون به الميل إلى السلطان ووجهوهم إلى الدریدی بفاس الجديد على حالة الشفعاء في أن يصطلح مع ابن صالح، فلما أقبلوا عليه أظهر لهم الترحيب وأدخلهم مصرية وأنزل لهم مائدة من طعام ملون يعرف بطبخ الدار، وقال لهم: عشاؤكم من أسبوع بنية تزيد لي، وخروجكم من هذه المصرية يوم خروجكم من زفافها، فعلموا أنهم مسجونون، وأنه توعدهم بطول سجنهم جدا، وأن توجيههم له من أصله إنما هو مكيدة واحتيال، وأنهم لو سجنهم جهارا لما أمنوا من انتصار بعض العامة لهم أو شبه ذلك، فلما وقع جميعهم في ذلك أسفوا وبقي الطعام بينهم لم يتناول أحد

(١) نشر المثنى في الموسوعة ١٥٣٧/٤ - ١٥٣٨.

منهم شيئا، فقدر الله تعالى ظهور مولاي الرشيد ودخوله فاسا الجديد في تلك الليلة، فالمائدة ما زالت بموضعها وطعامها وهم يسمعون الإعلان والصياح بنصر مولاي الرشيد في كل الجهات ففرج الله عنهم.

ربما تجزع النفوس لأمر وله فرجة كحل العقال^(١)

فمنهم من لم يخرج إلا بعد أن أكل من تلك المائدة زيادة في الفرح، ومنهم من حمل معه من ذلك الطعام وخرج مسرعا، ومنهم من بقى ثمة حتى دخل عليه السلطان مولاي الرشيد ومنهم البوعنانيون المذكورون فسر بهم وبقى يراهم^(٢).

وهذا من أسباب تولية أحفادهم القضاء من قبل مولانا إسماعيل، لما يعلم فيهم من تقرر محبة الإمارة، وكأنه بحث عن أحوالهم، ومن كان حاضرا بهذه القضية سيدى محمد بن أحمد الشريف العراقي الحسنى^(٣) سمعت هذه الحكاية من بعض أحفاده لبنته وهى شائعة عنه وعن غيره، ويذكرونها بزيادات لم أذكرها لأننى هذا الذى حققت منها، ولله الأمر من قبل ومن بعد^(٤).

قال: ومن حوادث سنة سبع وسبعين وألف رجوع السلطان مولاي الرشيد من الحركة أوائل ربيع الثانى، فكتبت له البيعة من فاس وقرئت بين يديه زوال يوم السبت الثامن عشر ربيع الأول، ثم خرج إلى مكناسة فى ربيع الثانى بقصد آيت ولال من البربر فأخذهم، ورجع ثم نزل الرئيس محمد الحاج قرب وادى فاس بأبى مزورة^(٥)، فقاتل قتالا خفيفا ورجع نحو ثلاثة أيام، ثم خرج السلطان مولاي

(١) نشر المثنى فى الموسوعة ١٥٣٨/٤.

(٢) نشر المثنى فى الموسوعة ١٥٣٨/٤.

(٣) فى نشر المثنى: «الحسينى».

(٤) نشر المثنى فى الموسوعة ١٥٣٨/٤.

(٥) فى المطبوع: «بأبى مزورة» والمثبت من المثنى الذى ينقل عنه المصنف. ومثله فى الاستقصا ٣٦/٧.

الرشيد لتازا حادى عشر رجب، ورجع فى شوال ففزع الرئيس العكين عن مكناسة، ثم خرج السلطان لبنى زروال ثانى يوم النحر فأخذهم وبعث رئيسهم الشريف إلى فاس ثانى محرم عام ثمانية وسبعين، ثم نزل على تطاوين فأخذ رئيسها فى صفر وأتى به فسجنه مع جماعته ورجع أوائل ربيع الأول^(١).

قال: ومن حوادث ثمان وسبعين خرج مولاي رشيد لحركة الزاوية الدلائية ضحوة الخميس الثانى عشر من ذى الحجة، وولى بفاس العلامة سيدى محمد بن أحمد الفاسى زوال يوم السبت من ربيع الثانى^(٢).

قال: ومن حوادث سنة تسع وسبعين أخذ الزاوية الدلائية، قال الشيخ أبو على اليوسى فى محاضراته: كان الرئيس أبو عبد الله الحاج بن محمد بن أبى بكر قد ملك المغرب سنين عديدة، واتسع هو وأولاده وإخوته وبنو عمه فى الدنيا، فلما قام الشريف السلطان رشيد بن الشريف ولقى جيوشهم ببطن الرمان فهزمهم، وذلك أوائل المحرم فاتح سنة ست وتسعين وألف، فدخلنا عليه، وكان لم يحضر فى المعركة من عجزه لكبر سنه فإذا بالفلّ يدخلون فدخل عليه أولاده وإخوته وأظهروا جزعا شديدا وضيقا عظيما فلما رأى منهم ذلك، قال لهم: ما هذا! إن قال لكم حسبكم فحسبكم، يريد الله تعالى. وهذا كلام عجيب وإليه يساق الحديث، والمعنى: إن قال لكم تعالى حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين^(٣) هـ.

قال: والإشارة بهذا إلى أن الله تعالى وضع لعباده فى الدنيا مائدة وجعلها بينهم دولا، كما قال تعالى: ﴿... وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ...﴾ [سورة آل عمران: آية ١٤٠] فكل من جلس على هذه المائدة وتناول منها ما قسم له فلا بد

(١) نشر المثنى ١٥٤٦/٤ فى موسوعة أعلام المغرب.

(٢) نشر المثنى فى موسوعة أعلام المغرب ١٥٥٢/٤.

(٣) نشر المثنى فى موسوعة أعلام المغرب ١٥٥٧/٤.

أن يقوم عنها بالموت أو بالعزل ليجلس غيره، ولا تدوم لأحد ولا ينام عنها من أقيم غالبا إلا بمرارة وعنف، ولذا قال ﷺ في الولاية: نعمت المروضة وبئست الفاطمة.

ثم من الناس من لم يشعر بهذا المعنى ولم ينتبه له، فهو يسعى إليها عجا بأوائل زخرفها وانخداعا بظهور زينتها، ومن الناس من علم ذلك وتنبه له، ثم من هؤلاء من نفعه الله بعلمه فأوجب له أفعالا محمودة إما قبل ولوجها بالزهد فيها والفرار منها علما بغايتها دينا وتقوى، أو حزما في الدنيا بعد الولوج فيها بالتعفف والإحسان والعدل والرفق ومجانبة الجور والبغى والخرق، إما دينا أيضا وحذرا من المطالبة في الآخرة، وإما خرقا دنيويا وحذرا من اختلالها واضمحلالها، إلى أن قال: وقال أبو عمر بن عبد البر: تكلم معاوية رضى الله عنه يوما، فقال: أبو بكر هرب منها وهربت منه، وأما عمر فأقبلت إليه وهرب منها، وأما عثمان فأصاب منها وأصابته منه، وأما أنا فداستني ودستها، قال أبو عمر: وأما على فأصابته منه ولم يصب منها.

ثم قال في المحاضرات بعد كلام طويل: وكل من تعرض لها من السلف فإما انتهاضا لنصح المسلمين من نفسه بإقامة الحق لثلا يضيع، وإما نزغة بشرية حركها لسبب من الأسباب، أما على هذا الثانى فلا يقتدى بهم، وأما على الأول فيقتدى به من بلغ مقامه فى التمكين القوة والنزاهة، وفى مثل زمنه الصالح الذى لم يزل به الدين طريا، والحق جليا، والأعوان عليه قائلون، وهيهات ذلك فى آخر الزمان الذى غلب فيه حب الدنيا واستولى على الناس سلطان الهوى، فلا ترى إلا حريصا على الجمع والمنع، ولا ترى إلا نفاقا ومداينة، فالمرء الكيس لا يعدل لنفسه بالسلامة شيئا، ومن له بوجودها إن لم يكن له من المولى لطف ظاهر هـ المراد من كلام الشيخ اليوسى باختصار.

فكان أخذ الزاوية يوم الاثنين ثامن المحرم، ومن لطف الله على أهل الزاوية فيما سبق لهم فى علمه ببركة جدهم محبتهم فى أهل البيت أن جعل خلاء زاويتهم على يد مولاى الرشيد الذى حلم عليهم الحلم المعهود لأمثاله من صرحاء أهل البيت، فما أسال من دمائهم ولو قطرة، ولا كشف لهم عن عورة، وربما مد بعض الظلمة يده فانتقم منه أشد الانتقام.

ولا يقال إن تخريب المترجم لهذه الزاوية وإجلاء أهلها منها وترحيل رؤسائهم لتلمسان وتغريهم هناك بدليل العيان غير مناسب لما كان فيهم من علم ودين، وزائد ود، لأبناء السبطين، لأنه يقال إن ذلك ضرورى عادى فى جمع الكلمة، إذ ما دام من كان بيده فى مأوى سلطانه إلا ومواد الثورة لا تنحسم وعين التشوف لا تنسد، ولو من رعاع الاتباع والمشاهدة أعظم برهان، ولأمر ما قال تعالى عن بلقيس: ﴿... إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً...﴾ [سورة النمل ٣٤].

فحيث كان هذا المقتضى الأكيد فى سياسة الأمة وجمع كلمتها وانضمام شمل ألفتها على من يحمى بيضتها قائما، فالعلم ومعطوفاته التى توجد حشو من يراد إقامته فى ذلك على المحجة البيضاء لا تعد موانع، من تنفيذ ذلك المقتضى، لأن درء المفسدة أهم، ولإمكان الجمع بظهور نتائج العلم ومعطوفاته من صاحبها فى أماكن أخرى لا تتطرق فيها مفسدة، وكذلك كان فإن جميع من كان من تلك العائلة له علم ودين قد استقر بحاضرة المغرب فاس، ونصبوا بها وبأحوازها للمناصب اللائقة بعلمهم ودينهم، كما حفظ ذلك كله التاريخ، وفى كتاب البدور الضاوية من ذلك ما فيه مقنع فحصلت لهم بذلك الكرامة، مع الأمن والسلامة، ولله فى خلقه شؤون.

قال أبو على اليوسى : وكان محمد الحاج فى ابتداء أمره طالبا فقيرا صعلوكا قليل ذات اليد ، ووالده مثله فكلف والده أن يشتري له فرسا فقال له : والله ما عندى ما أشتري لك به حمارا ، اشتغل بقراءتك مع بنى عمك واترك مرافقة البطالين ، وأقبل على ما ينفعك فلم ينفع فيه وعظ فهجره والده وأعرض عنه وتركه وشأنه ، فكان يأوى إلى كهف فى جبل فوق قريتهم بالدلاء مع أحداث مثله .

فاتفق ليلة لم يأت أحد منهم غيره فأتى بقبس نار وحطب وأوقد نارا بالكهف فرأى فى زاوية محلا كالباب مبنيا بحجارة فتأمله فإذا هو بناء ، فتوجه للقرية وأتى بآلة حديد قلع بها البناء ودخل من ذلك النقب بقبس نار فوجد محلا منقورا فى الجبل وبه سبعة قماقم من نحاس مختوم على أبوابها بالرصاص ، فدحرج واحدا منها إلى الكهف لثقله وكسر ختمه فوجده مملوءا بالدنانير المرينية ، فأخرج القماقم كلها إلى خارج الكهف وحفر لها فى الأرض ورد عليها التراب وسواه .

ورجع إلى الكهف فأغلق الباب كما كان بالحجر والطين ونكسه ونقص من القمقوم الذى فتح مقدار ما يحمل وتوجه به لدار والده ، فوضعه بمحله ، ورجع إلى القمقوم فحملة وأبلغه لمحله ، ولما أصبح استرضى والده ببعض ذلك وجلب خاطره به ووصل أقاربه وبنى عمه واشترى لرفقائه وله خيلا وسلاحا واشتهر بينهم بأنه يحسن صنعة الكيمياء ، وأقبل عليه البطالون .

فلم تكمل السنة إلى أن كان يركب فى مائة من الخيل ، فجاءه أحداث قبيلة مجاط فاجتمعوا عليه وكان يستركبهم ، وعظم أمره وصار يشن الغارة على أهل تادلا ، وعلى أهل ملوية وأمر أمره فدعا لنفسه ه بنقل صاحب الروضة السليمانية .

وفى الدور: وكان أهل صاحب الترجمة - يعنى الرئيس محمد الحاج - كارهين لولايته لما كانوا عليه من الاشتغال بالعلم والدين والسير على سنن المهتدين، ولما سمعوه من الشيخ والدهم رضى الله عنه فإنه كان يقول له أنت سبب خراب هذه الزاوية، وكان يقول سيجعل لكم محمد سلما تصعدون به إلى درجة ثم ينكسر السلم وتنهدم الدرجة، وفى ذلك يقول أخوه الشيخ الإمام سيدى محمد الشاذلى رحمه الله:

بلىنا بذى نسب شائك قليل الجدا فى زمان الدعاه
إذا ناله الخير لم نرجه وإن ضعفوه ضعفنا معه

وفى الدور أيضا أن أبا عبد الله محمد بن أبى بكر قال لأخت له ذات يوم: سيجعل لكم محمد يعنى والده محمد الحاج سلما تصعدون معه فيه وتدعون اخنيفة يعنى ثياب المسكنة، فترجعون فلا تجدون اخنيفة وتلتمسون السلم فلا تجدونه هـ.

قال فى نزهة الحادى: حدثنى غير واحد من أشياخنا أنه أى أبا عبد الله محمد بن أبى بكر لما دنت وفاته جمع أولاده وذويه وقال لهم: ﴿... إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ...﴾ [سورة البقرة ٢٤٩] وأنا أقول ولا من اغترف بيده يشير بذلك إلى ما يتجاذبونه من الرئاسة بعده ويبتلون به من أبهة الخلافة وذلك فى مكاشفاته وقد اعترض عليه بعض الطلبة بقوله وأنا أقول بأنه سوء أدب بمقابلة كلام الله بكلامه وأجاب عن ذلك حفيده شيخنا الفقيه العلامة الشهير أبو عبد الله محمد المسناوى برسالة مستقلة ولولا الإطالة لجلبناها بنصها هـ وهى مطبوعة فى فتاويه المطبوعة بفاس ٢٢٢.

وفى الدور أيضا: قد نقل بعض الأثبات الثقات أن الأمير محمد الحاج لما وصل بمن معه من أهله وبنيه. وأقاربه وذويه. لمدينة تلمسان، ولم يعبأ بهم إنسان، ونزلوا منها بحرم العباد مستمطرين الفرح بالمآب، من ملك أمور العباد ورب الأرباب. قال: لا إله إلا الله الله أكبر، كنا نظن أن ندخل مدينة الجدار، دخول عز وافتخار، فدخلناها دخول ذل واحتقار، والأمر لله الواحد القهار.

قال: وبقي رحمه الله بتلمسان نحو من عامين وأربعة أشهر، وتوفى بها عشية يوم الخميس رابع محرم الحرام فاتح عام اثنين وثمانين وألف ودفن من الغد قريبا من ضريح الشيخ محمد بن يوسف السنوسي، فكانت مدة أيامه. من وقت قيامه. وجمع شمل نظامه. بمبايعته أولا وثانيا وصيرورته إماما واليا. إلى وقت ارتحاله وخلعه وإخراجه من وطنه إحدى وثلاثين سنة، إلا أن أيامه كانت غير متمحضة للحرب ولا للسلم.

قال: وبقي من كان معه بتلمسان من بنيه. وأقاربه وذويه، إلى تمام العام فتوفى السلطان الرشيد فكان بين وفاتيهما معا أحد عشر شهرا وستة أيام، وبقي أهل الزاوية بمكانهم نحو من عامين وأشهر.

قال: وكان خروج أهل الدلاء من العباد - يعنى منقلبهم لفاس - فى جمادى الأولى عام خمسة وثمانين وألف، فلما رجعوا كان نزولهم بقرب روضة سيدى على بن حرزهم، وبقوا به مدة ثم أمرهم السلطان مولاي إسماعيل بالدخول للمدينة الإدريسية، وأن يسكنوا منها حيث شاءوا وعظّمهم وأعظاهم، وأكرم نزولهم ومثواهم وبالتوقير والاحترام أولاهم وآواهم هـ.

قال الأسير مويت: وكان ابن أبى بكر هذا عالما بنوايا الرشيد لذلك، أخذ يستعد لملاقاته فأرسل أولاده إلى الجبال بقصد حشد الجيوش ثم وزع الأموال واستخلف الأسيّاح على أن يعينوه بأموالهم وأنفسهم حتى النهاية، فأقسموا له

على ذلك، إلا أن فريقاً وجه إلى السلطان يستقدمه لزرايتهم ظناً منهم أنهم سينالون شيئاً من السبى فأجابهم إلى ذلك، ومر في طريقه على جبل الحديد فأخذ عنوة، ثم قصد ابن أبي بكر والتقى الفريقان ببطن الرمان غرة عام ١٠٧٩، إلا أن أولئك الأشياخ الذين كانوا يقبضون الأموال من الرشيد احتالوا في قبض ابن أبي بكر وسلموه لعدوه فعفا عنه، ووجهه إلى فاس ومنها إلى تلمسان حيث قضى نحبه يوم ١٥ ماي ١٦٧١، ثم إن الملك قضى فصل الشتاء كله في الزاوية هـ الغرض.

وما زعمه من الاحتيال في قبض ابن أبي بكر والإتيان به للمترجم يفنده ما في البدور الضاوية نقلاً عن الأزهار الندية ونصه: ذكر لنا بعض الأثبات أن السلطان الرشيد لما قدم الزاوية الدلائية بقصد الاستيلاء عليها، لقبه الأمير أبو عبد الله محمد الحاج وكان متناهما في السن، فقال له: ما تريد؟ فقال له: الملك، فقال له: هو الآن في محله فباعه ودفع له مالا فقبض منه المال. وألان له في المقال. وذهب بأهله وحشمه إلى تلمسان هـ.

وقال نقلاً عن تحفة المعاصر ما نصه: أخبرني الشريف البركة الخير المرابط سيدي أحمد بن عبد القادر القادري الحسني ثم الفاسي أنه كان بها يعني الزاوية الدلائية حين دخول السلطان الرشيد إليها حاضراً، وكنت ممن لفظته يد الاكتئاب، ورمت به قوس المحن والاغتراب، لما شاهدت يومئذ من تغير الأحوال، وكثرة الأحزان والأهوال، إلى تادلاً فلما وصلت الصومعة منها ولقيت الفقيه الصالح سيدي عبد الرحمن بن إسماعيل والد الفقيه العلامة الولي الصالح سيدي محمد ابن عبد الرحمن صاحب سيدي أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله معن الفاسي رحمهم الله تعالى وسألني عن خبر الزاوية المذكورة وأهلها وما فعل

هنالك، لم أملك عيني من البكاء بتذكره أيام تلك الأيام والمعاهد، وما خص الله تعالى به أولئك السادات الكرام الأماجد.

قلت رضى الله تعالى عن سيدنا حسان، ذكرنى لفظ التذكر والبكاء قوله
بيكى أصحاب مؤتة بقوله:

يؤرقنى ليل ييثرب أعسر وهم إذا ما نوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت لى عبرة سفوح وأسباب البكاء التذكر
بلى إن فقدان الحبيب بلية وكم من كريم يتلى ثم يصبر
هـ.

وفى نزهة الحادى وغيرها أن الشريف الرشيد غير من الزاوية الدلائية
المحاسن، وصير محاسن معينها العذب آسن، وصحبها حصيدا كأن لم تغن
بالأمس، وكانت مشرقة إشراق الشمس، فمحت الحوادث ضياءها، وقلعت
ضلالها وأفياءها، وقد أطال فانظر بقية كلامه.

وكان ممن حضر هذه الحادثة الإمام أبو على الحسن بن مسعود اليوسى ورثى
هذه الزاوية بقصيدته الرائية الشهيرة المشتملة على جودة الرثاء المقصود، والتأسف
على فوات حسن الحال المعهود، والتحنن إلى معاهد تلك الأطلال، والتشوق لمن
كان بها من القطان والآل، والتنبه إلى الدهر والبائس، وتقلبه بأهله وأبنائه. والتأسى
بذى التصبر لصروفه، والتسلى بما بيديه من نكره عن معروفه، وعدم الاهتبال بما
يحدثه من الحوادث وترك الركون لنعيمه الحادث، وعدم الثقة بود بنيه، وتلون شيم
أهله وذويه، ورفع الهمة عنهم ثقة بالمولى، فيما لا بد وأولى، والتخلى عن خلل
الحزايا والكبائر، والتحلى بحلل المزايا والمثائر، والترقى فى أدراج خير السجايا
لإدراك المعالى والمفاخر، إلى غير ذلك من الأخلاق والأوصاف الحسان. التى

يحصل الشرف بها فى الدين والدنيا وينجو بسببها فى الآخرة الإنسان . قال فى مطلعها :

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا
وأسأله أن يكتم الوجد ساعة
وقد كنت أستصحيه حين توقدت
على أن دمع العين فضل حشاشة
وكانت سرور الهم عنى عوازبا
وكانت عيون الحادثات غوافلا
ليالى كان البين عن جيرة الحمى
وكانت رياض الحسن تزهو نضيرة
ومجنية منها طرائق تجتلى
وكانت مدامات الوصال مدامة
تجاذب أخذان الصفاء كئوسها
فبيننا ليال الوصل بيض وروضه
عدت عدوة أيدى الحوادث فاختلفت
وأبدلن مانوس الديار وأهلها
وبين جموع الحى كالراح شبتها
وكالفرقدين الطالعين تألفا
أصابتهم عين الكمال فغادرت
فيأبى ويعتاض العقيق به جمرا
فيشقى وإن اللوم آونة إغرا
جذى الوجد فاستسقيته يطفئ الجمرا
تذاب فماذا ينفع الدمع أن يجرا
وبعد النوى أضحت مراتعها الصدرا
زمانا وخطب الدهر كان بنا غرا
صدودا ونظم الشمل لم يستحل نثرا
فكاهتهم أضحت بأرجائها زهرا
إذا تجتنى فى كل مظلمة بدرا
على القوم صرفا لا مزيجا ولا نزوا
فلا تختشى منها خمارا ولا سكرا
يفيض الندى كانت مرابعه خضرا
خلالها فعاتت بعد نضرتها غبرا
بوحش وحولن الأهيل بها قفرا
بماء فما تخشى جفاء ولا نفرا
وصاحبى الملك الذى نادى الشعرى
أكفهم من كل ما جمعت صفرا

وردتهم مثل الثريا إذا رأَتْ
فأصبح فى أرجائها اليوم منشدا
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
فلا جفن إلا وهو مغض على القذا
ولا وجد إلا وهو مرخ سدوله
صبرت فؤادى للخطوب فلم يزل
وأزمنت نهر الدمع عنى تعزيا
ووجهت نحو الحى أعرب عن هوى
وأحسب ما قد كنت أحسب دائما

إلى أن قال :

هو الدهر لا يبقى على متخشع
حسام إذا ما صمم الدهر فى امرئ
ورح سموم حيث ما هب مرة
وسيل إذا ما يمم الأرض أصبحت
وليث هصور ما تغشى حظيرة
غشوم فما يرتاع من بأس خادر
فليس عجيبا ما أتى من عجائب

إلى أن قال :

ألم تر أن الدهر حبلى أنينة

سهيلا بشحط البين أو واصل والرا
يردد مما قال من قد خلا شعرا:
أنيس بلى لكن هوى جدهم عثرا
ولا عين إلا من نجيع الشجا حمرا
ولا هم إلا وهو يكتشف الفكرا
به رشقها حتى تقضى فلا صبرا
فلما جرى كالنهر لم أملك النहरا
ضميرى فما ألفت زيدا ولا عمرا
فخطت بنان البين فى راحتى صفرا

ذليل ولا ذى نخوة مزده كبرا
غدا دمه بين الورى خضرا مضرا
تعفت معافيه وإن بعدت مرا
أخايد وانفلت كرادسها كسرا
فيسطو إلا أنعم العض والعقرا
لحى ولا من حسن ساكنة خدرا
ولو أطلع الغبراء واستنزل الخضرا

ولادتها يوما وإن لم تكن تدرا

فمن منح تسلى ومن محن تسي
ولا تأمنن أبناءه أن تحببوا
وكل بنى دهر فأشباه دهرهم
إلى أن قال:

ومن لم يكن مستغنيا بقناعة
ومن لم يكن يسترغد العيش بالرضا
ومن لم يكن بالحزم محتزما فقد
ومن لا يبادر صيده وهو معرض
ومن يشر بخسا نوقه وهى شول
ومن يحتسب يهمل كما الغيث وابلا
ومن لا يشقف متنه الدين والحجا
ومن لا يجنب قوله دنس الخنا
ومن ييغ ندلا بالسباب وبالنوى
ومن يصحب الأمجاد تنظف ثيابه
ومن لا يجالس من يجانس لم يدم
ومن لا يجاوز بالصدق ويلحه
ومن يرم بالبغض الودود معنفا

نتائجها صغرى على المرء أو كبرى
إليك فمن يشبه أباه فقد برا
على ما قضى الله الكريم وما أجرى

فليس بمنفك عن الناس معترا
بقسمته لم يبرح الدهر مضطرا
فرى حبله عن نجحه قبل أن يفرا
ليرميه كان العناء له قصرا
عجاف تمنها لها غيره شkra
فلا الحقل يجفو بالعباد ولا الصبرا
ويرم الورى يلق المثقفة السمرا
فلا يمتعض يوما إذا أسمع الهجرا
يكن بنضار جيد يشتري الصفرا
ومن يصحب الأردال يكسى بها العرا
له أحد فالأسد ما ترام الحمرا
يجد ليه نغلا إذا نزع القشرا
ليصفو يورث قلبه البغض والغمرا

وهى أطول من هذا تشتمل على مائة بيت واثنين وستين بيتا، وقد شرحها
غير واحد من فطاحل العلماء والأدباء ما بين موجز ومسهب.

وقد رثى أهل هذه الزاوية غير واحد من جلة العلم، وقد ألمّ بجملة وافرة أبو الربيع سليمان الخوات فى الدور الضاوية تركنا جلب ذلك روما للاختصار.

هذا وإن المترجم قدس سره، قد نقل علماء هذه الزاوية المباركة لفاس لنشر العلم، ومن جملتهم الإمام اليوسى، قال فى تحفة المعاصر: إن الشيخ اليوسى لما أمره الرشيد بالرحيل من الزاوية البكرية وألزمه النزول بمدينة فاس والتصدير للتدريس بها امتثل أمره ودخل مدينة فاس، وأقام متصدراً للتدريس فأخذ عنه ملاً كثيراً، وجم غفير، ولزمه أهل الاعتناء المنصفون، وانتفع به أهل المغرب انتفاعاً ظاهراً، وكان الرشيد يحب إقامته بفاس ويأبى هو إلا البادية فعاتبه فى ذلك، فاعتذر له بأنه رجل بدوى المولد والمنشأ وحينئذ أبداً لأول منزل هـ بنقل الدور لأبى الربيع سليمان بن محمد الخوات الحسنى المتوفى عام واحد وثلاثين ومائتين وألف.

وفى الشر: أن الرشيد لما فرغ من إخلاء الزاوية فى الثانى والعشرين من صفر قصد مراکش فأخذها وقتل رئيسها عبد الكريم المدعو كروم الحاج الشبانى مع جماعة من حزبه^(١) وقربته وبعد موته بشهر رجع مولاي رشيد من حركته تلك يوم الجمعة تاسع عشرين ربيع الثانى.

وخرج صاحب تافلاّت ابن أخيه مولاي محمد بن الشريف مع أتباعه وخلق سبيل البلد وكذلك الخضر غيلان ذهب فى البحر إلى الجزائر، وخلق سبيل أصيلا. وعزل القاضى المزوار، والمفتى محمد بن أحمد الفاسى زوال الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الثانية، وولى محمد بن الحسن المجاصى القضاء يوم الجمعة بعد عزل المزوار المتقدم والفقير سيدى محمد البوعنانى خطبة القرويين بعد عزل سيدى محمد بن أحمد الفاسى، ثم خرج مولاي الرشيد للشاوية عصر يوم السبت سابع عشر رجب ورجع سابع رمضان، فأمر بإخراج أهل الزاوية من فاس

(١) التقاط الدرر - ص ١٧٦.

ثم سمح للبعض منهم وبقي البعض بضريح سيدى على بن حرزهم^(١) إلى آخر العام ثم سمح فردهم جميعاً^(٢).

ثم خرج لحركة آيت عياش ظهر يوم السبت سابع عشر ذى الحجة، وأحدثت السكة الرشيدية ثانى وعشرى الحجة وأقرض التجار من فاس وغيرها اثنين وخمسين قنطاراً مدة من سنة حتى ردوها وبها بنى قنطرة سبو وفى يوم السبت رابع عشر ذى القعدة أخذ فى أهبة بنائها^(٣).

قال: ومن حوادث عام ثمانين وألف بدء أساس قنطرة سبو، وفى خامس عشر جمادى الثانية بدأ البناء فيها بالآجر^(٤)، وخرج المولى الرشيد لحركة الأبيض يوم الاثنين الثانى والعشرين من رجب ورجع يوم الخميس ثامن رمضان، ومات أولاد أخ الأبيض من الغد قبضهم هنالك وقُتلوا بعد وصولهم لتازا، ثم مرض السلطان مولانا الرشيد مرضاً أشرف على الهلاك، وأخرج جميع من كان بالسجن يوم السبت السابع عشر وبرئ من الغد، وفى يوم الأحد خامس عشر ذى القعدة عمل عرس مولاي إسماعيل أخى السلطان وفى شوال^(٥) جددت قنطرة الرصيف^(٦).

(١) فى نشر الثانى: «على بن حرازم».

(٢) نشر الثانى فى الموسوعة ١٥٥٧/٤ - ١٥٥٨.

(٣) نشر الثانى فى الموسوعة ١٥٨/٤ - ١٥٩.

(٤) فى المطبوع: الاجر بدون علامة فوق الألف، وفى نشر الثانى: «الأجر» بهمزة فوق الألف، وكلاهما خطأ صوابه لدى الناصرى فى الاستقصا ٣٩/٧. والآجر: اللبن المحرق المعد للبناء.

(٥) فى هامش المطبوع: «والذى فى البستان الظريف أن التجديد كان فى ذى القعدة من العام».

(٦) نشر الثانى فى موسوعة أعلام المغرب ١٥٦٣/٤، وانظر فى ذلك أيضاً: الاستقصا ٣٩/٧.

قال: ومن حوادث عام واحد وثمانين وألف استولى مولاى رشيد على تارودانت وهى مدينة فى أقصى سوس بها أنهار جارية وبساتين مشتبكة وفواكه مختلفة، وأسعار رخيصة، والطريق منها إلى أغمات وريكة فى أسفل جبل ليس بالأرض مثله إلا القليل فى العلو وطول المسافة واتصال العمارة وكثرة الأنهار والفواكه، وبأعلى هذا الجبل أكثر من سبعين^(١) حصنا وقلعة، منها حصن منيع هو عمارة محمد بن تومرت ملك المغرب، إذا أراد أربعة من الناس أن يحفظوه من أهل الدنيا حفظوه لمنعته^(٢).

فوقع فتح المدينة رابع صفر واستولى على هشتوكة يوم الأحد ثامن عشر صفر وقتل منهم نحو الألف ونصف فيما قيل، واستولى على أهل الساحل ومات منهم أزيد من أربعة آلاف على ما قيل يوم الأحد خامس عشر صفر، وفى مهل ربيع الأول أخذ أهل إيليغ دار ملك سيدى على بن حسون، ومات منهم بسفح الجبل نحو ألفين على ما قيل، وفى سابع ربيع الأول قتل بفاس خليفة السلطان نحو ستين من أولاد جامع، وعلقوا بالبرج الحديد لأجل قطع الطريق هـ^(٣).

قال الأسير مويت: ولما تم الأمر للرشيد على الشبانة عام تسعة وستين وستمائة وألف [ميلادية] توجه إلى مراكش، ثم بعد ذلك وردت عليه كبراء الشبانات يبيعهم فأمّنهم، ثم جند الجنود منهم ومن غيرهم وتوجه إلى حاحة فكان لا يمر بقبيلة إلا بايعه أهلها لما يعلمونه من شدة بأسه، وكان وما معه من الجنود يبلغ ٦٣ ألفا منهم ٢٥ ألفا من الفرسان.

ولما قرب من سوس أراد أهل الجبال أن يمنعوه من المرور إلى تارودانت فحاربهم وقهرهم، ولما قرب من أكادير تلقاه أهلها وبايعوه، ثم توجه نحو إيليغ

(١) فى نشر المثنائى المطبوع: «من عشرين» وفى إحدى نسخه الخطية «من سبعين» كما هنا.

(٢) نشر المثنائى فى الموسوعة ١٥٦٥/٤.

(٣) نشر المثنائى فى الموسوعة ١٥٦٥/٤.

بأولاد سيدى أحمد وموسى فحاصر القصبة حتى أضر الجوع بأهلها فطلبوا من أميرهم أن يسلم نفسه للسلطان فأبى، ولما جن الليل خرج من باب سِرْبِهِ^(١) وهرب، ثم إن أهل إلغ لما علموا بفرار أميرهم خرجوا إلى السلطان وبايعوه ثم بعد ذلك، رجع السلطان إلى فاس سنة سبعين وستمئة وكتب لجميع الولاة باستئصال شأفة قطاع الطريق، وإقامة الحدود على الزناة وشراب الخمر^(٢) هـ.

وفى نزهة الحادى لما تمت البيعة له يعنى للمترجم أفاض المال على العلماء وغمهم بجزيل العطايا وبسط جناح الشفقة على أهلها يعنى فاسا، وأظهر إحياء السنة ونشر الشريعة فحل من قلوبهم المكان الأرفع، وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة هـ الغرض.

قال فى النشر: وفى جمادى الأخيرة خرجت سكة الفلوس الجديدة المدورة، وجعل أربعة وعشرين منها فى الموزونة الرشيدية بعد أن كان فى كل موزونة ثمانية وأربعون، وبطلت الفلوس الأشقوية المربعة، وفى يوم الاثنين ثالث رجب رجع مولانا الرشيد من حركة سوس. وفى أوائل شعبان ابتداء بناء المدرسة التى بالشراطين من فاس المنسوبة لمولانا الرشيد بموضع دار عزوز، وفى أوائل شعبان أمر المولى الرشيد ببناء قصبة بعرضه ابن صالح وديار لمتون والدكاكين، وأعطى ألف مئقال لبناء سورها وأمر قواده ببناء الدور فيها، وأمر شراكة^(٣) ببناء قصبة

(١) فى المطبوع: «من باب سرية» والسرب: المسلك فى خفية.

(٢) نشر المئال فى الموسوعة ٤/ ١٥٦٥ فى حوادث ١٠٨١ هـ، ومثله فى الاستقصا ٧/ ٤٠ حوادث ١٠٨١ هـ.

(٣) فى هامش المطبوع: «قال فى البستان: إن هؤلاء شراكة قدموا معه يعنى المترجم من الشرك واستخدمهم فى جنده منهم العرب الشجع وبنى عامر ومنهم من البربر مديونة=

الخميس وأعطى ألف دينار لبناء سورها، وخرج لزيارة سيدى أبى يعزى رابع رمضان ثم إلى سلا، ورجع لفاس ثامن وعشرين من رمضان^(١).

وقال فى حوادث عام اثنين وثمانين: بعث المترجم خيلا للجهاد نحو طنجة أول صفر، وبعث خيلا لسوس وقائدها عبد الله أعرّاص وذلك يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى، وسافر لتافراطة للصيد يوم الاثنين قرب الزوال فسمع قيام ابن أخيه [بمراكش]^(٢) فدخل فاسا يوم السبت حادى عشر رمضان وخرج من يومه عصرًا، فلقبه محبوسا بيد خدامه عند فزارة^(٣) فبعثه إلى تافيلالت وسافر إلى مراكش وبعث قائده زيدان لفاس يوم الأربعاء تاسع ذى القعدة ليأتى بالجيش، فأناه أهل سوس وغيرهم طائعين ولم يبق للحركة موضع بعد أن خرجت الأخبية لوادى فاس^(٤) هـ.

قال أبو محمد عبد السلام بن السلطان الأعديل أبى عبد الله محمد بن عبد الله إسماعيل السلطان الأعظم فى درة السلوك، وريحانة العلماء والملوك ما لفظه: كان مولانا الرشيد يقسم أيامه بين المقام بمراكش والمقام بفاس، وكان إذا ارتحل لفاس يترك بمراكش خليفته ابن أخيه مولاي أحمد بن محرز، وإذا رجع يترك أخاه مولاي إسماعيل بالغرب.

=وبنى سنوس وأنزلهم بقرب فاس فحصل منهم الضرر لأهل المدينة وتشكوا منهم فأمرهم بالانتقال بحلثهم لبلاد صدينة وفشتالة بين النهرين سبو وورغة، وأقطعهم تلك الأرض وعزل عزابهم، وأمرهم ببناء بيوتهم بقرية، وأعطاهم ألف دينار لبناء السور، وجعلهم قبيلة واحدة حيث أنفوا من ولاية الترك وفروا إليه هـ مؤلف.

(١) نشر المثنى فى الموسوعة ١٥٦٦/٤.

(٢) من نشر المثنى.

(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «فتراوة» ورواية نشر المثنى: «فنزارة» والمثبت رواية الاستقصا ٤٢/٧.

(٤) نشر المثنى فى الموسوعة ١٥٧١/٤، والاستقصا ٤٢/٧.

وكانت أيام مولانا الرشيد أيام راحة ودعة وسكون جامعة للمحاسن وأشتات الفنون، وكان محبا في العلماء مطالعا لكتب الأقدمين فقيها متضلعا، إلا أن أيامه لم تطل وكانت مدة خلافته سبع سنين، وكان مختصا به الفقيه الأديب السيد عبد المالك التجموعتي، والفقيه الأديب السيد سعيد التلمساني، والفقيه الأجل السيد محمد بن عبد الرحمن الفاسي، وله مع فقهاء المغرب وأدبائه أخبار حسان يطول ذكرها هـ.

ومن مفاخر المترجم شدة اعتناؤه بتحقيق الشرف والنسبة للبيت النبوي حتى قال في السر الظاهر: إنه كان مثلا مضروبا في ذلك، وكان يسند ذلك لأهل العلم والدين، ويزجر أهل الإفك والزور في ذلك بما يليق بهم من الزواجر البالغة، قال: وجرى في أمرهم على طريقة ملوك الفرس، فإنها كانت تضبط أهل بيتها بضوابط أسلافها، حتى كانت تمنعهم من مناقحة من لا يليق بهم هـ.

قلت هو إشارة لتوجيه ما كان عليه المترجم وملوك آل بيته بعده من التحجير في مناقح آل بيتهم بأن لا تكون إلا في أبناء عمهم، أما النساء منهم فعلى سبيل الإطلاق والشمول والاستغراق من غير استثناء، وأما الرجال فكذلك إلا إذا اقتضى الحال في بعض الخواص تسريحه له بإذن خاص، ولكن تخريج صاحب السر الظاهر ذلك على التأسى بملوك الفرس ليس على ما ينبغي، فإن اعتبار النسب في الكفاءة في النكاح هو القول الخامس في المذهب حكاه ابن عرفة وغيره.

وقال الحفيد ابن رشد في بدايته: إن قول أبي حنيفة وأصحابه إن القرشية لا تزوج إلا من القرشي ولا العربية إلا من العربي، وأن قول الثوري وأحمد: إن العربية لا تزوج من مولى، وكذا نقل ابن العربي في الأحكام أن أبا حنيفة والشافعي يعتبر أن في كفاءة النكاح الحسب.

ونقل ابن جزى فى قوانينه أن أبا حنيفة والشافعى يعتبران فيها الحسب والنسب ونبه فى البداية على أن مستند هذا القول هو الحديث الصحيح تنكح المرأة لدينها وجمالها ومالها وحسبها، قال: فلا يخرج من الاعتبار فى الكفاءة من هذه الأوصاف المذكورة فى الحديث إلا ما أخرجه الإجماع وهو الجمال، فانظره، وعليه فلا ملام على ملوكنا الفخام. فيما اختاروه لمناكح آل بيتهم الكرام. إذ لا اتفاق فى المذاهب على خلافه وكذا خارج المذهب كما تراه.

علائقه السياسية

لما كان عام ستة وستين وستمائة وألف ميلادية ورد التاجر (رولان افرجس) الفرنسى على المترجم وهو إذ ذاك بتازا يطلب منه الإذن ببناء محل للتجارة بالريف بنواحي وادى انكور، وكان قبل وصوله لصاحب الترجمة وجه له كتابا يطلب منه الأمان والإذن له فى القدوم لحضرته، وذكر أن بيده كتابا من ملك فرنسا كلفه بتقديمه إليه، وإليك ملخص ترجمة ما كتب به:

إلى الشريف العظيم القوى مولاي رشيد حرسه الله، لما كان سبب مجيئى لهذه البلاد مهما جدا ومفيدا لدولتكم أطلب من جلالتكم الإذن لى فى القدوم على أعتابكم وأن تسمحوا لى باللقى بكم لأتشرف بشرح أسباب مجيئى لإيالتكم، ولأسلم لكم كتابا من ملك فرنسا من مرسى البوزيم ٥ أفريل عام ١٦٦٦.

ولما اتصل هذا الرقيم بالمترجم أجابه بالإذن بالقدوم والأمن على نفسه وماله، وعين له ستين بغيراً لحمل أثقاله ودونك ترجمة جوابه له:

بسم الله، من التقى المرضى عبد الله القائم بالله المنصور بالله أمير المؤمنين الشريف الملك بمعونة الله مولاي الرشيد حفظه الله بمنه إلى القبطان (رولان

افرجس) توصلنا بكتابك طالبا الإذن فى الدنو من حضرتنا، فلك أن تدنو وقد أعطيناك تمام الأمان فى قضاء ما أتيت من أجله، وإذا دنوت فلا تجد بحول الله إلاّ الأمن التام والاطمئنان، والسلام على من اتبع الهدى، كتب فى أوائل شوال عام ١٠٧٦.

ولما ورد السفير على حضرة المترجم اعتنى به وأكرم وفادته، ثم لما مثل بين يديه وذلك بالقصر الفاخر المشيد بفاس فاتح إبريل سنة ١٦٧١ ألقى خطبة إليك ملخص ترجمتها:

أيها الشريف الجليل جئت بإذن مولاي ملك فرنسا لأقدم لجلالتكم فائق احتراماته وأؤكد لكم أنه راغب كثيراً فى صداقتكم ومستعد لقضاء ما يهمكم فى مملكته، وتصديقا لما أقوله هأنا أسلم لجنابكم رسالة كلفنى مولاي بتسليمها إليكم وأنتظر الجواب بما يظهر لكم، وإنى أعد نفسى أسعد الخلق حيث كلفنى أميرى بهذه المهمة، وسأكون أول من يحمل إلى فرنسا خبر هذا اللقى الحسن الذى اقتبلتنى به جلالتك، وأسأل الله أن يطيل بقاءكم وأن يمتعكم بدوام السعادة ويبلغكم ما تتمنون هـ.

ثم قدم لصاحب الترجمة كتاب ملك فرنسا الذى جاء متأبطا له وإليك فحواه: إلى الشريف العظيم مولاي رشيد، فإن ما نسمعه عن جلالتك من أنها تقبل اقتبالا حسنا كل من تشرف بالوصول إلى أعتابكم حقق لنا ستقبلون بفرح التاجر (رولان افرجس) الذى أوفدناه إليكم سعيا فى ربط علائق الصداقة معكم، وقد كلفناه أن يعرض عليكم قضاء كل ما يخصكم من مملكتنا وأن يكلمكم فى شأن أمور أخر وفى فتح باب التجارة بين رعيتكم ورعيتنا، وقد أذنا للتاجرين (ميشيل) و(رولان افرجس) أن يؤسسوا شركة من أعيان دولتنا فنطلب منكم أن تساعدوهما على ذلك، وإننا مستعدون لإعطاء دلائل المحبة والاحترام اللذين

نضمهما لجلالتكم، وهذا ما نريده منكم، ونسأل الله أن يديم عزكم وأن يجعلكم سعداء أولاً وآخرًا، وكتب بياريز في ١٩ نونبر سنة ١٦٦٥هـ.

ثم إن السفير طلب من جلالة الأمير المترجم أن يأذن له يجعل شركة فرنسية بفاس بقصد التجارة في الجلود والشمع والنحاس والصوف فلم يجبه لذلك، وبعد انتهاء حفلة الاستقبال وجه المترجم للسفير جواب كتاب أميره الذى أتى به وها نصّ ترجمته:

الحمد لله ولا غالب إلا الله المنصور بالله أمير المؤمنين المجاهد فى سبيل رب العالمين رشيد إلى عظيم النصارى لوزير، السلام على من اتبع الهدى، وبعد: فقد بلغنا كتابك وقرأناه وفهمنا ما فيه من طلبك إلا من لمن أراد من رعاياك التجارة فى بلادنا فقد أعطينا الأمان كل من أتى إلى بلادنا ومن سيأتى بقصد التجارة وفى ٢٦ شوال عام ١٠٧٦^(١) كتبه كاتب عن أذنه حرسه الله بمنه^(٢) وأمر السفير بالرجوع من حيث أتى، ولما رأى أن حيلته بارت ومساعدته لم تنجح أخذ فى بيع ما أتى به من السلع، ثم بعد مدة حدث له شئتان مع بعض التجار قضى عليه برفع الشكوى به لحضرة المترجم فسار إليه لأجل ذلك، والحال أن المترجم كان يعتقد أن هذا السفير رجع إلى بلده وأدى مأموريته التى أتى من أجلها، ولما رآه وعلم أنه لا زال بالديار المغربية لم يبق له أدنى ريب فى أنه مفتر فيما ادعاه من

(١) فى هامش المطبوع: يوافق هذا التاريخ فاتح ماى سنة ١٦٦٦ .

(٢) فى هامش المطبوع: سجل أصل هذا الكتاب فى صحيفة ٢٠ من الجزء ٣ فى الوزارة الخارجية الفرنسية قال بعض مؤرخى أوروبا كان هذا الكتاب محررا باللغة العربية ولكنه لم يقع العثور على أصله ولا على ترجمته الإصباتية وإنما الموجود ترجمته من اللغة الإصباتية إلى الفرنسية وقد كان المولى الرشيد أصدره من تازا وكان مغشى بمنسوج الحرير الأزرق وتوجيهه للوزير كان بواسطة الوزير كولبير هـ مؤلف» .

السفارة محتال فى جر النار لقرصه فتزع منه ما كان دفعه إليه من الأجوبة، وألزمه مغادرة المملكة المغربية من حينه ولم يسمح له بملاقاة ثانية.

وقد فند الكنت دو كاسترى كون ذلك الكتاب الذى جاء متأبطا له هذا السفير صدر من ملك فرنسا للمترجم قائلا: لأن مولاي الرشيد إذ ذاك لا زال لم يظهر أمره حتى يعلم به ملكهم، وإنما كان الملك دفع لزاعم السفارة كتابا للشيخ عراس لكونه كان مشهورا مسموعا به ولما جاء التاجر رولان المذكور للديار المغربية وعلم بسلطنة مولاي الرشيد زور ذلك الكتاب ليتوصل به لغرضه.

وانظر تفنيده هذا مع ما جاء فى صحيفة ١٩٦ كتاب من ينابيع التاريخ له نفسه من رسالة لوزير الرابع عشر التى كاتب بها المترجم من (سان جرمان) بتاريخ ٨ دجنبر سنة ١٦٦٦ وإليك ترجمتها:

«من الملك إلى مولاي رشيد ملك فاس الأمير المعظم الأفخم، صديقنا الأعز، لقد بعث إلينا بكتابكم التاجر رولان فرجس الذى كنا أوفدناه عليكم بقصد إنشاء محلات للتجارة بين أهل رعييتنا ورعييتكم لما فى ذلك من الفائدة للجانبين، فجاء ذلك الكتاب جوابا للرسالة التى كنا كلفناه حملها إليكم، وقد سرنا قبولكم لطلبنا بفتح أبواب المتاجر قبولا حسنا كما يستفاد ذلك من جوابكم ومما أخبرنا به هو نفسه، كما سررنا بإكرامكم لوفادته فشكرا لكم على اعتباركم لجانبنا، ونرجو أن تدوم هذه العلاقات الحسنة بيننا وأن تزيد الروابط متانة بين أهل دولتنا ودولتكم، لذلك فإننا نكتب إليكم مرة أخرى طالبين منكم أن تعضدوا التاجر (فرجس) المذكور مع أخيه وشريكه (مالبنى) وأحسن برهان تبدوونه على محبتكم إلينا هو إعانة الشركة المذكورة وإجابتها إلى كل طلب تقدمه إليكم. هذا ونؤكد لكم بأننا أخذنا حظاً وافراً من فرحكم بعد انتصاركم على المرباط (الخضر غيلان) الذى كان

قام عليكم، وختاماً نسأل الله أن يحرسكم أيها الملك المعظم الأفخم، وكتب فى قصر (سان جرمان) فى اليوم الثامن من دجنبر سنة ١٦٦٦ هـ.

ويوجد هذا الكتاب بسجلات وزارة الأمور الخارجية الفرنسية ضمن ما يتعلق بالمغرب من المكاتبات القنصلية وهو مسجل بصحيفة ٨٧ من الجزء الأول.

وفى سابع شتنبر ١٦٦٦ كتب الملك لويز من «فان سين» بالأمر لسفيره الذى كان بالجزائر المسمى (اطروبر) أن يذهب براً أو بحراً إلى ملك تافلات مولاي رشيد ليطلب منه الإعانة على حصار طنجة التى كانت بيد الإنجليز، ويكون حصاره لها برا وحصار الأسطول الفرنسى بحرا، ولكن السفير لم يجد سبيلا للذهاب لمولاي رشيد انظر صحيفة ١٨٩ من الجزء الأول من ينابيع التاريخ المذكور للكننت دوكاسترى.

وكتب الملك لويز للمترجم كتابا من باريز ٢٣ يراير سنة ١٦٧٢ يوصيه فيه بشامويل ازو الذى كلف بالمفاوضة فى شأن بعض الأسارى، وإليك فحوى ذلك الكتاب:

إلى الملك الأكبر الأفضل المقتدر حبيبنا الأعز، لقد طبق خبر انتصاراتكم جميع أنحاء أوروبا، ويسرنا بهذه المناسبة أن نؤكد لكم بأننا أخذنا حظا وافرا من فرحكم وإننا نتمنى لكم النجاح والفلاح فى جميع أعمالكم، هذا وبما أن ما بيننا من الصداقة وحسن المعاملة يقضى علينا أن نرأف برعايا بعضنا بعضا فلا ريب أنكم ستعتبرون اقتراح التاجر شمويل دورد الذى أوفدناه عليكم ليخاطبكم فى شأن معاوضة الأسارى الذين أخذتهم السفن المعدة لحماية تجارتنا بالأسارى الذين أخذهم منا أهل سلا، وقد كلفناه أن يسلم لكم عشرة من رعاياكم بعد أن تسلموا له مثل ذلك العدد من أهل رعييتنا الذين قد اتخذتموهم عبيداً بقطركم، واعتماداً على ما أبدىتموه لهم من دلائل العدل كلما سنحت لكم الفرصة فلا نشك أنكم

ستلبون هذا الطلب، وبذلك نكون مدينين لكم بحسن الاعتراف، ولنا اليقين بأنكم ستصدرون أوامركم لقوادكم ولأهل رعييتكم بتأمين تجارنا الذين يفدون على مملكتكم حتى لا يلقي عليهم قبض ولا يسجنون، وهذا ما نؤمله من حسن التفاتكم الذى يمتن علائقنا، ونطلب الله المتعال أن يزيد فى عزكم يا أيها الملك الهمام المعظم وأن يختم عليكم بالسعادة وكتب بعاصمة باريز فى ٢١ فبراير ١٦٧٢ حبيبك المخلص لويز.

وتحتة توقيع «كولبير وزير التجارة» هـ من صحيفة ٤١٤ من الجزء الأول من ينابيع التاريخ.

وقال مؤلفه الكنت دو كاسترى فيما علقه على هذا المكتوب إن هذا الكتاب لم يبلغ لمولاي رشيد لأنه توفى بمراكش فى ١١ حجة سنة ١٠٨٧ الموافق ٩ إبريل سنة ١٦٧٢، ولما لم يصل هذا الكتاب طلب فرمون أحد وزراء لويز من الوزير الأعظم كولبير كتابا آخر مثله لمولاي إسماعيل هـ.

وفى سنة ١٦٧٠ وجه ملك الإنجليز وهو يومئذ كرلوس ٢ [هارى هوراس] سفيرا للمترجم يهنئه بالانتصار ومعه هدايا فاخرة من جملة رماح طوال وستة مدافع من النحاس وعربة مزخرفة يجرها اثنا عشر فرسا وثياب.

ولما وصل السفير إلى طنجة وجه إلى صاحب الترجمة بالرماح فسر بها وأصدر أوامره لعمال القصر وتطاوين بإمداد السفير بسائر ما يحتاج إليه من لوازم السفر الكافية لوصوله للحضرة السلطانية، وبينما السفر يتهيأ من طنجة إذ ورد عليه الأمر السلطاني بتأخير سفره نحو الخمسة عشر يوما حيث عرض له ما أقلق راحة الرعية، وكدر صفو الأمن العام بسببها، ورأى أنه لا بد له من النهوض لحسم مادة ذلك الفساد بنفسه قبل اتساع خرقه فأجاب السفير بالسمع والطاعة.

ولما سكن المترجم هيعة البلاد، وقطع جرثومة العناد، وجه للسفير بأمره بالقدوم لحضرته، ثم بدا لصاحب الترجمة أن يكون مجيء السفير بحرا من طنجة إلى سلا، فلم يرض بذلك واغتاز وطلب الإذن له فى أخذ ما أتى به هدية وقدمه أمامه لسلا والرجوع من حيث أتى، فساعده المترجم على ذلك فأخذ الهدية وانقلب إلى وطنه.

بناءاته و آثاره

من ذلك مدرسة الشراطين المتقدمة الذكر، وكان ابتداء العمل فيها أول شعبان عام واحد وثمانين وألف، وجدد ما اندثر من قنطرة سبو، وكان صدور أمره ببنائها يوم السبت الرابع عشر من ذى القعدة والشروع فيها فى منتصف جمادى الثانية عام ثمانين وألف، وجدد القنطرة التى بخارج باب الحديد من فاس، وقنطرة وادى فاس، والقنطرة التى بخارج باب البوجات من فاس المرينية المعروفة اليوم بالقنطرة الطويلة، وقنطرة وادى النجا، وقنطرة وادى ويسلن، وقنطرة وادى أم الربيع، وآبار السلطان المشار لها فيما مر المعروفة إلى الحين الحالى بآبار السلطان الواقعة بالوضع المعروف بالشط من بلاد الظهراء، وقنطرة الرصيف داخل فاس الإدريسية، وكان تجديده لها فى شوال، والذى فى الروضة أنها فى ذى القعدة سنة ١٠٨٠، وبنى القصبة الجديدة المارة الذكر بعرضة أحمد بن صالح المرينى الأندلسى وديار لمتونة بالموضع المعروف بالدكاكين، وأدار السور على الموضع المعروف بدور كرواية من جيش السعديين حيث بنى شراكة دورهم، وقبة ضريح جده المولى على الشريف دفين مراكش.

وفاته: توفى وهو ابن اثنتين وأربعين سنة بحضرة مراكش يوم الخميس التاسع من ذى الحجة المذكور، وسبب وفاته أنه كان بجنان المسرة فى اليوم المذكور لابسا

زيته وأراد أن يركب فرساً لم يركب قط ورديا في لونه وحضر من حضر من أصحابه فنهاه عن ركوبه قائلا له: إنه فرخ شرير لم يركب قط وما تعلم ما يصدر منه فأبى، وقال ما عسى أن يصدر منه! كم ركبت من فرس جموح فغلبيته وأذعن تحتى، وأمر به فأسرج وركبه داخل الرياض فما استوى على ظهره حتى شرد به وجمع فمر به على عود من ليمونة به أثر قطع الحديد محرفا فدخل العود فى عنقه ما بين الودج والترقوة من الظهر فتركه معلقا به وزاد الفرس فى جموحه وشروده، وكان أمر الله قدرا مقدورا، وأنشأ الشعراء فى موته على الحالة المذكورة قطعاً وقصائد مضمنها أن عود الليمون غار عليه فقبضه ولم يفلقه وقد رمز لوفاته صاحب الدر السنى بقوله (فشب) ١٠٨٢ من قصيدة فقال:

وأما الرشيد بن الشريف إمامهم (فشب) له نصر بملك مكمل

١٠٨٢

١٤١ - راشد بن منصة الأوربي خديم آل بين الرسول المخلص مولى الإمام الأكبر رحمه الله ورضى عنه.

حاله: صرح غير واحد من ثقات المؤرخين ومحققيه بأنّه كان له إلمام بالعلوم ومعرفة تامة بالسياسة والأخبار وأيام العرب ووقائعها والفروسية والرماية ومكايد الحرب، ذا قوة وحزم ونجدة وإقدام ودهاء ونباهة ودين متين، وثبات ورسوخ وأمانة، وصلاح وورع وزهد وتقى وإخلاص حب ونصيحة فى آل بيت الرسول، يوالى بموالاتهم ويعادى بمعاداتهم، وكفاه فخرا وشرفا أنه من أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالفضل على لسان من لا ينطق عن الهوى، وما أبداه من صدق الولاء والقيام بسائر الشئون والخدمات اللازمة لجناب بضعة الرسول الغضة الطرية شمس اليمن والفلاح المشرقة بالديار المغربية، مولانا إدريس بن عبد الله الكامل، وبذل نفسه النفيسة ابتغاء مرضاته، خرج معه خديما ودليلا وحارسا

ومعززا ونديما، ولم يزل تحت أوامره يصابيه ويصطفيه ظعنا وإقامة إلى أن نقله الله إليه شهيدا.

وبالغ جهده وطاقته في الأخذ بثأره من المارق الممقوت اللعين سليمان بن جرير المعروف بالشمّاخ، فاقتفى أثره إلى أن لحقه بوادى ملوية فضربه بسيفه ضربات قطع بإحداهن يده وأثخنه بالباقي جراحا، ومع ذلك عبر الوادى فأعجز المترجم لحاقه فرجع وجهاز مولانا إدريس ودفنه، ثم ألح القوم عليه بالقيام بأمرهم كما كان مولاه من قبله إلى أن تضع جاريته كنزة حملها، فإن وضعت ذكرا بايعوه، وإن وضعت أنثى لم يعدلوا عنه، لأنه أحقّ بالإمامة من غيره لعلمه وفضله ودينه وشهامته ونصحه لملة الإسلام.

فقام بالأمر أحسن قيام، وجعل فى حكمه بينهم الكتاب والسنة إمام، وحفظ حرمة مولانا إدريس فى أهله وولده من بعده حملا ورضيعا إلى أن شب على هدى سلفه فى صيانة وعفاف، وتحلى بأشرف الأوصاف، وتجلى على منصة الجلال والكمال، حفظ القرآن وهو ابن ثمانية أعوام وتفهمه وتعلم السنة والسياسة وحفظ أشعار العرب واستطلع على سياستها وأمثالها وحكمها ووقائعها وحروبها ودربه على الرماية بالسهم وركوب الخيل وخدع الحرب والمكر والفر، ولما بلغ من السن إحدى عشرة سنة أخذ له البيعة العامة على المنشط والمكره من سائر القبائل.

وأصل راشد هذا قيل من المغرب وبه نشأ أوربى من القبيلة الشهيرة وهو ابن منصة، سبى مع أبيه فى غزوة موسى بن نصير، وقفل معه إلى المشرق، وقيل: من المولدين، وقيل: من العرب من موالى العلويين، وقيل: غير ذلك والله أعلم بحقيقة الأمر، وأيا كان فله يد بيضاء فى الإسلام وفضل لا ينكر، وأثيل مجد يجب أن يذكر به ما طلع نجم ويشكر.

وفاته: توفي رحمه الله شهيدا سنة ست وثمانين ومائة بإغراء من ابن الأغلب عليه، ودفن قريبا من ضريح مولانا إدريس في الجهة الجنوبية يمين الخارج للمزاراة العليا من المسجد الأعظم هناك وضريحه ثم مزارة شهيرة تفد إليها الزوار من كل صوب وصقع، حتى إن زوار الضريح الإدريسي وخصوصا الأمراء والملوك يبدءون بزيارة المترجم ثم ينقلبون لزيارة الضريح الإدريسي رضى الله عنهما.

١٤٢ - رحمة بنت الجنان زوجة أبي عبد الله محمد بن عزوز الصنهاجي المعروف بالحاج عزوز، أتت الترجمة في حرف الميم.

حالتها: كانت حافظة لأحاديث كثيرة من الصحاح، وكادت أن تحيط حفظا بالأدعية الواردة في الصحاح، وكانت ملازمة لدرس القرآن العظيم في المصحف، عالمة بكثير من تفسير قصصه وأخباره، وتزوجت بعد وفاته بأحمد بن محمد والد الإمام ابن غازي، ورزقت^(١) الإمام محمد بن غازي صاحب الروض الهتون وغيره المترجم فيما يأتي:

مشيختها: أخذت عن زوجها المذكور.

الآخذون عنها: منهم الإمام ابن غازي، قال: حفظت منها كثيرا من أيام الصغر فلم أتعب كثيرا في حفظه في الكبر وقال فنفعتنا بذلك في الصغر غاية برد الله ضريحها.

١٤٣ - روان المدعو أبا الروائن ابن محمد بو مدين بن عبد السلام بن علي ابن الولي سيدى عيسى بن الشيخ محمد بن عيسى بن عامر دفين مكناس.

حاله: قال الزبادي في سلوك الطريق لدى تعداد له لشيخه الذين أخذ عنهم

(١) تحرف في المطبوع إلى: «ورقت»..

الطريق العيساوية فى حق المترجم: الفقير المسن الصالح المتمسك الناسك، أخذنا عنه ورد سيدى بن عيسى لقيناه فى غرفة داره ببركة من مكناسة الزيتون بعد امتناعه من ذلك.

وفاته: توفى عام الزلازل سنة تسع وستين ومائة وألف.
